الفصل الثانى

السخرية فى الشعر العربى القديم

النشأة والتطور

السخرية فى شعر العصر الجاهلي:

عندما نتحدث عن السخرية فى الشعر المصرى فى القرن العشرين، يكون لزاما علينا أن نلقى الضوء عليها – ولو فى عجالة سريعة – فى الشعر العربى القديم، حتى ترتبط الفروع بأصولها العريقة فى باطن التاريخ الأدبى الطويل.

ونحن عندما ننظر إلى البيئة العربية فى العصر الجاهلي، نجد أن "شعر الهجاء كان من أوضح صور السخرية بالخصم، وكان قاسيا وعنيفا، مريرا يتناسب مع ضراوة الحياة فى الصحراء التى لا تعرف الرحمة" (١).

وشئ طبعى أن تتعدد أضرب الهجاء فى البيئة العربية القديمة، فقد كان منه الشخصى ، ومنه الاجتماعى ، ومنه السياسي، والدينى .

والهجاء الشخصي: هو ما يتناول الشاعر فيه عرض المهجو، ونسبه، وأخلاقه وعيوبه الجسدية. **وهو ما درج عليه معظم شعراء العربية.**

والاجتماعي: ويراد به "ذلك الهجاء التهكمي، الذى يقصد إلى تجسيم عيب من عيوب المجتمع، وتصويره فى أبشع صوره؛ رغبة فى الإصلاح والتقويم.

وقد يتمثل هذا العيب الاجتماعى فى شخص من الأشخاص ، فيهجوه الشاعر، ويبرز ذلك العيب بشكل يسترعى انتباه القارئ والسامع، وليس الشخص قصودا لذاته فى مثل هذا النوع من الهجاء، وإنما المقصود هو هذه السوءة الاجتماعية" (٢).

١- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٢٥ بتصرف يسير.

٢- الشعر الاجتماعى عند جماعة الديوان، د. رزق محمد داود/٨٤ (رسالة دكتوراه١٩٨٦م).

أما السياسى منه: فهو الذى يتناول السلطان، ويمثله شيخ القبيلة وأعوانه[١].

وقد دار الهجاء فى العصر الجاهلى حول الانتقاض من مثل الجاهليين وفضائلهم، والانتقاص من نسب المهجو، والازراء بمكانة القبيلة ، وإلصاق المخازى بها[٢] .

ولعل الذى دعانا إلى الحديث عن الهجاء الجاهلى هنا، هو أن السخرية متفرعة عنه بل إنها من أرقى صوره وأساليبه التى وصل إليها مع تطور الحياة.

لكن ينبغى أن نعلم أن كل هجاء ليس داخلا فى السخرية، بل هناك فرق بين هجاء وهجاء فالهجاء المقذع الفاحش الخشن الغليظ ، الذى يذكر المعايب والمخازى بفجاجة ووقاحة، وينطوى على الحقد والسخط، هو هجاء محض.

أما الهجاء الذى لا يصدر فيه الشاعر – غالبا – عن حقد أو سخط، وإنما يعمد إلى العبث بأحد الأشخاص ، وإظهاره فى صورة هزلية على سبيل التندر والدعابة والظرف[٣] فهو هجاء السخرية والتندر الذى تقصد إليه هذه الدراسة.

وهذا اللون من الهجاء الساخر يعتمد على الطرافة، أو النكتة ، أو الصورة المضحكة.

والسخرية "عنصر هام فى بناء الصورة الهجائية؛ لأن الشاعر يتناول موضوعا مألوفا، وربما تعاطف الناس مع المهجو ، فلكى يجذبهم نحوه، وينفرهم من المهجو، فلابد من تأصل عنصر السخرية فى العمل" [٤] .

ومما ينبغى أن يتوفر فى الشاعر الهجاء هنا "أن يكون ذا عين بصيرة وحاسة لاقطة، وإدراك ذكى لماح، يميز بين المشتبه، ويفرق بين الغث والسمين" [٥] .

١- راجع: الفكاهة فى الشعر المملوكى ودلالتها الرمزية، د.حسن أبو المجد/٩١ .

٢- راجع:الهجاء فى الأدب الأندلسى ، د.فوزى عيسى/١٥ ،وراجع: اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجري، د.قحطان التميمى/٢١، دار المسيرة – بيروت.

٣- يراجع:الهجاء فى الأدب الأمدلسى / ١٨٧ .

٤- الهجاء الجاهلي، د. عباس عجلان/٢٨٢ .وكلمة (هام) الواردة فى هذا النص خطأ، والصواب(مهم).

٥- المصدر السابق والصفحة. وراجع: أسلوب السخرية فى القرآن الكريم/٢٣ وما بعدها.

وبذلك يستكمل الشاعر أدوات إتقان هذا الفن، فيصدر فى شعره الساخر عن حس نقي، وانفعال صادق، وقدرة على التصوير.

ففن الهجاء الساخر، لا يكتفى برصد الصور والمشاهد المرئية، وإلا لما كان شيئا وإنما هو القدرة على خلق صور جديدة متآلفة أو متنافرة مع المهارة الفائقة فى تركيبها.

فالشاعر هنا "يخلق خلقا آخر مباينا أو مخالفا العالم المشاهد، ومعتمدا على علاقات دقيقة يتخذها محاور فنية للبناء الشعري" (١).

هذا، وقد زعم بعض الباحثين أن السخرية فى الشعر الجاهلى لم تكن تسيطر على تعبيرهم الفنى أو تتغلغل فيه كثيرا.

ويرجع ذلك – من وجهة نظرهم – إلى سببين:

الأول: أن العرب لا يعرفون إلا الصراحة فى التعبير، فهم يقومون "بتسديد سهامهم مباشرة من غير خوف أو وجل أو تريث" (٢).

وأسلوب السخرية – كما نعلم – غير صريح، فالشاعر الساخر يقول شيئا ويقصد عكسه، أو يعرض ولا يصرح ، وذلك لخوفه من السخرة كما يحدث فى أيام الكبت السياسى أو الاجتماعى،فهو "أفعى ليس له صوت حين يسير،أو حين يسخر،ولكنه يقتل بسخريته"(٣)

الثاني: أن العرب أمة تتميز بالتأثر السريع، والساخر لابد أن يكون متحكما فى انفعاله وثورته ولو إلى حين(٤).

ومهما يكن ، فإن ذلك لا يعنى أن السخرية فى الشعر الجاهلى لم تكن موجودة أو لم تكن ذات تأثير فى حركة الحياة، فقد كانت موجودة فى كثير من أشعار الجاهليين ولكنها كانت بسيطة كبساطة نفسية الشاعر الجاهلي.

١- الهجاء الجاهلي، د/عباس عجلان/٢٨١ بتصرف.
٢- السخرية فى الأدب العربى ، د.نعمان طه/٦٧ .
٣- المصدر السابق نفسه/١٣
٤- يراجع المصدر السابق نفسه/٦٧ .

وليس ذلك بمانع أيضا من وجود بعض صور السخرية- فى الشعر الجاهلى تتميز بالعمق والإيجابية والقوة والنفاذ والتأثير.

ومن الأمثلة التى تؤكد صدق قولنا، ما قاله (سلمة بن الخرشب)[1] الغطفاني يهجو (بنى عامر بن صعصعة) رهط عامر بن الطفيل..

وقوم عامر قوم أولو بأس شديد، ولديهم الشعراء ، ولذا كان لابد لسلمة أن يتخير فى كلامه الجوانب المؤلمة لهم، حتى يجد آذانا تسمع، وقلوبا تعقل ما يقوله.

يقول سلمة[2] :

إذا ما غدوتم عامدين لأرضنا	بنى عامر فاستظهروا بالمرائر[3]
فإن بنى ذبيان حيث عهدتم	بجزع البتيل بين باد وحاضر
يسدون أبواب القباب بضمر	إلى عنن مستوثقات الأواصر
نجوت بنصل السيف لا غمد فوقه	وسرج على ظهر الرحالة قاتر[4]
فأثن عليها بالذى هى أهله	ولا تكفرنها لا فلاح لكافر

وبالتأمل فى هذه الأبيات ، نجد أنها تستند إلى الحقائق الاجتماعية التى عرفت عن أبناء بنى عامر.

ففى معركة كانت بين العامريين وغطفان، خنق الحكم بن الطفيل (أخو عامر) نفسه خوفا،فاستغل (سلمة بن الخرشب) هذا الأمر،وأعلن عنه فى مفتتح الأبيات، وكأنه – بذلك – قد عمم هذا الأمر، ووصم به بنى عامر كلهم.

١- هو سلمة بن عمرو بن الخرشب بن نصر الأنمارى، شاعر جاهلى مقل، من بنى الأنمار من بغيض من غطفان، كان معاصرا لعروة بن الورد، وله قصيدتان فى المفضليات (ينظر فى الترجمة: الأعلام، الزركلي، ج١١٣/٣).

٢- انظر: المفضليات، للمفضل الضبى، ت: أحمد شاكر، وعبد السلام هارون/٣٦، ط/دار المعارف، القاهرة، "والأبيات من البحر الطويل".

٣- المرائر : هى الحبال الجيدة الفتل.

٤- سرج قاتر: هو الجيد التمكن من ظهر الدابة.

فالبداية – كما نشعر – فيها السخرية المؤلمة المبنية على حقيقة لا يمكن إنكارها فمن أراد منكم يا بنى عامر أن يقصد إلينا، فليأت بحبل غليظ كى يشنق به.

وهذه البداية : المرة القاسية ، ربما أثارت سؤالا عن سبب ذلك ، فيأتى البيت الثانى ليزيل هذا الإبهام الذى أثارة البيت الأول.

وقد أبرز الشاعر فى بيته الثانى أمورا ثلاثة: التعريف بالعدو، ومكان الواقعة المعهودة، وحالتهم، وهذا يؤكد مضمون البيت الأول، فما أنزل الهزيمة بكم غير بنى ذبيان، وهم – كما تعلمون – فى مكانهم على منحنى جبل البتيل المعروف بنجد ما بين حاضر وباد، وقد حبسوا خيولهم بأفنية بيوتهم لعزتها، وهو بذلك يكشف عن قوتهم، ومدى استعدادهم للغارات.

وقد اثبت الشاعر البيت الثالث ليكمل صورة هذا البناء الفنى المثير.

وأما أنت يا عامر، فقد كتبت لك النجاة، وليس معك من عدتك غير شيئين:

نصل سيف لا غمد له ، وسرج قاتر.

وهذه صورة ساخرة ولاذعة لفارس معلوم ، يخرج من المعركة ومعه سيف بلا غمد وفرس ليس عليه سوى سرج لا يغني.

كما يرجع الشاعر سبب نجاته إلى فرسه الرحالة، فإن كنت شاكرا فوجه شكرك إلى هذا الفرس ، ولا تدع أنك نجوت بشجاعتك، فلولاها ما نجوت، ولا تكن من الذين يكفرون نعمة من أسدى إليهم معروفا.

ولا شك فى أن هذه سخرية قاسية من(عامر) ، بل من بنى عامر كلهم.

ونلحظ أن الشاعر لم يرم بنى عامر بالجبن والضعف والخور بطريق مباشر كما أنه لم يمدح قومه مدحا مباشرا، بل إنه استجمع ما يعلمه عن بنى عامر فى بعض مواقعهم ووظفه هنا توظيفا حسنا يحمل بين طياته ألوانا من السخرية اللاذعة، والتهكم المرير[1].

١- انظر الهجاء الجاهلي، د. عباس عجلان/١٩٦ وما بعدها.

ومن الأمثلة التى أعجب بها النقاد، ما جاء عند زهير بن أبى سلمى[1] من تعريض وتشكك وتجاهل فى أمر آل حصن من بنى عليم الكلبيين ، حيث يقول[2] :

وما أدرى وسوف أخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء؟

فإن تكن النساء مخبآت فحق لكل محصنة هداء

فهو يتشكك فى كنه أهل حصن ، هل هم رجال ؟ أو نساء ؟ وهى سخرية مرة تحمل كل ما يريد من وصفهم بالجبن، فهن نساء خبئن فى الخدور وينبغى أن يزوجن .

وهذا الشك – الذى أبداه الشاعر – أشد فى السخرية – من التعريض والقطع فى النبأ.

ولعل فى هذه اللمحة أو هذه الإشارات السريعة ، ما يكشف عن أن فن السخرية كان موجودا فى أشعار الجاهليين، مما يدل على أصالة هذا الفن، وعمق جذوره التاريخية.

إذن فلا يمكن القطع بأن السخرية كانت لديهم قليلة أو ضعيفة، وإنما يمكن القول بأنها ضاعت مع هذا الشعر وهذا النثر الذى ضاع، ولم يصلنا منه إلا القليل"[3].

ويمكن أن نشير-هنا- إلى أن السخرية فى العصر الجاهلى إن كانت قليلة فإن ذلك يكون باعتبار النظر إلى العصور التى تلته ، ويلحظ عليها أنها كانت بسيطة وغير معقدة، وكانت فى الغالب تتوجه إلى القبائل المعادية، وإلى بعض الشخصيات المؤثرة فى البيئة الجاهلية.

وإنما كانت كذلك؛ لأنها مبنية على الفكاهة والمرح والعبث، وهو ما يخالف طابع الحياة فى العصر الجاهلي.

١- هو زهير بن أبى سلمى بن ربيعة بن رباح المزنى ، لزم منذ صغره بشامة بن الغدير خال أبيه، فتعلم منه الحكمة، وسداد الرأي، وقد توفى قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة (ينظر فى الترجمة: - الأغاني، ج١٠/٣٣٦وما بعدها، والأعلام، ج٣/٥٢) .

٢- ديوان زهير بن أبى سلمى/١٢، دار صادر- بيروت، (بدون تاريخ) والبيتان من الوافر التام.

٣- السخرية فى الأدب العربي، د.نعمان طه/٦١ بتصرف.

ومن أراد المزيد من شواهد السخرية فى هذا العصر، فليرجع إلى دواوين الشعراء وإلى المجموعات الشعرية المختلفة، فسيجد فيها بغيته، وما ذكرته فى هذا المقام غيض من فيض[1] .

السخرية فى شعر عصر صدر الإسلام:

عندما ظهر الدين الإسلامى الحنيف بمبادئه السامية، وآدابه الرفيعة، كان "ثورة فكرية إنسانية، عصفت بمظاهر التخلف الدينى ، والانقسام القبلي، والظلم الاجتماعى، وتبنت مبادئ المساواة والإخاء والعدل، وانتشلت العرب من وهدة الفرقة والصراع القبلى ، ليعيشوا أمة عربية واحدة لها أهدافها فى الحياة ومشاركتها فى سبيل التقدم الإنساني" .

وأمام هذا التقدم الإسلامى الهائل، لم يقف المشركون مكتوفى الأيدي معقودى اللسان، وإنما حاربوا الدعوة الإسلامية ، وأرادوا قتلها فى مهدها بشتى السبل، وكان من الأسلحة التى استخدموها فى هذه الحرب المسعورة: سلاح السخرية، فقد استخدموا هذا السلاح ضد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وضد دعوته.

والناظر فى السيرة النبوية لابن هشام ، يجد فيها كثيرا من المواقف التى سخر المشركون فيها من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن دعوته.

فقد ذكر أن "الإراشي" [2]لما طلب من بعض القرشيين أن يعينوه على رد إبله من "أبى جهل" أشاروا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وهم يهزءون به، لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة، وقالوا: اذهب إليه فإنه يؤديه إليك[3] .

١- راجع ما يلي:
- ديوان امرئ القيس، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم/١٢٨، الطبعة الخامسة، دار المعارف١٩٩٠م.
- ديوان النابغة الذبيان/١٠٩، ١١٠، ط/دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م.
- ديوان عنترة بن شداد، شرح د. يوسف عيد/٧٨، ط/دار الجيل – بيروت.
- الكامل فى اللغة والأدب، المبرد، ت: أبو الفضل إبراهيم، ج١/١٧١، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٦م.

٢- الإراشي: نسبة إلى إراشة ، وهى بطن من خثعم . وإراش: هو ابن الغوث، أو ابن عمرو بن الغوث بن بنت مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، وهو والد أنمار الذى ولد بجيلة وخثعم. (ينظر: السيرة النبوية لابن هشام، ت: مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى ج١/٣٨٩، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٩٥٥).

٣- راجع:السيرة النبوية ، ج١/٣٨٩ .

وكان مرادهم من ذلك ، أن يسخروا من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولكن هذا الأمر لم يتم لهم فقد كان عون الله مع رسوله (صلى الله عليه وسلم) حتى رد إليه حقه، وعاد "الإراشي" حتى وقف على مجلس المشركين، وقال: جزاه الله خيرا، فقد – والله- أخذ لى حقي.

وبذلك انقلب الأمر، وتحول الموقف إلى السخرية منهم، وإدخال الغيظ على قلوبهم المريضة.

وكان من الأمور الطبيعية فى هذا الجو المفعم بالصراعات، أن يخوض الشعر المعركة، وأن يناضل فى سبيل نصرة الحق، وإزهاق الباطل.

"فقد أدرك النبى (صلى الله عليه وسلم) قيمة هذه الحرب الكلامية ، وما تتركه من آثار فى نفوس الناس، فاستعدى شعراء المسلمين على شعراء أعدائهم ، فكان الهجاء والقتال متلازمين فى نشر الدعوة" [1].

وبذلك "كان الهجاء من أوسع الأبواب الشعرية التى واكبت الإسلام فى مسيرته"[2] .

وقد ظهر أثر الإسلام على أسلوب الهجاء حينما "هذب النبى (صلى الله عليه وسلم) من أساليبه برفضه التفحش فى القول، بل إنه توعد الشعراء المغالين فى السباب" [3].

وقد كان من شعراء الدعوة الإسلامية: حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، وكلهم من الأنصار.

أما شعراء المسلمين من قريش، فقد كانوا فى ميزان أقل من ذلك فى قرض الشعر.

وقد فطن النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى أن شعراء الأنصار لا يعرفون أسرار قريش، ولا يدركون عوراتهم، فلو تناولوهم بسلاح الهجاء والسخرية، قد لا يؤثر ذلك فيهم ولذا فقد دلهم (صلى الله عليه وسلم) على من يعرف أسرار الناس، ويحفظ عيوبهم، وهو أبو بكر الصديق فأرشد حسانا إليه وأذن لأبى بكر أن يدله على عورات المشركين، ويوقفه على

١- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجري، قحطان التميمي/٢٦ .
٢- المصدر السابق/٢٥ .
٣- الفكاهة فى الشعر المملوكي، د. حسن أبو المجد/٩٥ بتصرف يسير.

دخيلتهم، فانطلق لسان حسان وجاد شعره، وغدا سيفا صارما،يتوجه إلى رقاب المشركين فيصيبهم فى مقتل[1].

وسوف نذكر – هنا – شاهدا لسيدنا "حسان بن ثابت"[2] يسخر فيه من الحارث ابن هشام بن المغيرة، فى صورة هزلية،وأسلوب مضحك ، فيقول[3]:

يـا حـار، إن كنـت امـرءا متوسـعا ... فافد الأولى ينصفن آل جناب[4]

أخـوات أمـك، قـد علمـت مكانهـا ... والحـق يفهمـه ذوو الألبـاب[5]

أجمعـت انـك أنـت الأم مـن مـشى ... فـى فحـش مومسة، وزهـو غـراب

وكـذاك ورثـك الأوائـل أنهـم ... ذهبـوا، وصـرت بخزيـة وعـذاب

فورثـت والـدك الخيانـة والخنـا ... واللـؤم عنـد تقـايس الأحـساب[6]

وأبـان لؤمـك أن أمـك لم تكـن ... إلا لـشر مقـارف الأعـراب

وبالتأمل فى هذه الأبيات ، نجد أنه يسلب هشام بن المغيرة أعز شيمة عرف بها فإن كان يفخر بماله الكثير، فعليه أن يقتدى به خالاته من القيام بأعمال الخدمة والمهانة عند آل جناب (عبد الله بن هبل الكلبي)، لا أن ينفق هذا المال فى سبيل الوصول إلى المكانة العالية ، لأنه لن يصل إلى شئ من ذلك، بسبب أنه مجهول الأصل.

والأبيات – كما نرى – توظف أسلوب السخرية والتهكم فى صورة عنيفة ومؤلمة.

ولعل ما يكشف عن ذلك، هو ذلك النداء الذى يوحى فى ظاهره بالإيناس والنصيحة التى تحمل الحقد والمكر، وتعمل على تفجير نيران العداوة.

١- راجع: الهجاء الجاهلى ، د. عباس عجلان/٢٣٠،واتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجري/٢٦ .

٢- هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام، ينتهى نسبه إلى يعرب بن قحطان، ولد فى منتصف العقد السابع من القرن الثالث الميلادي، وعاش ما يقرب من مائة عام، قضى أكثر من نصفها فى الجاهلية، توفى سنة ٤٠هـ على الأرجح. (ينظر فى الترجمة : الأغاني،ج١٤١/٤، والأعلام ج١٧٥/٢).

٣- ديوان حسان بن ثابت/٣٢، ط/دار ابن خلدون بالإسكندرية (بدون تاريخ)، "الكامل التام".

٤- متوسعا: ذو غنى، ينصفن: يخدمن.

٥- علمت مكانها: منزلتها.

٦- تقايس: تسابق.

وجدير بمن كان يعرف أصله، ويدرك سوء منبته أن ينأى عن الزهو، ولكن هشاما هذا يتعامى عن الحق، وقد يكون له عذره، إذ إنه ليس وحيدا فى هذا الشأن، فالمرأة البغى تغلظ القول، والغراب يتدلل ويزهو...

وهذه لاشك صور ساخرة ومخزية ومضحكة فى آن واحد.

* ومن ذلك – أيضا – ما قاله سيدنا حسان فى قبيلة جذام ساخرا منهم[1] :

مـــر أبـــى ســـمية مـــا أبالـــى أنـــب التـــيس أم نطقـــت جـــذام

مـــا شـــاتهم ولـــدت تنـــادوا أجـــدى تحـــت شـــاتك أم غـــلام

فهذه سخرية مرة ولاذعة، وتصوير لحالهم حين يولعون بالحيوان هذا الولوع إلى حد أنهم يفرحون فرحا شديدا عندما تلد شاة لهم.

وتكمن السخرية فى رميهم بإتيان الشياه، إذ قد يظنون أن الشاة حملت من أحدهم بغلام، والفعل "تنادوا" يصور فرحهم ودعاء بعضهم بعضا لرؤية هذا المشهد، وهى سخرية موجعة قاتلة.

- ومن أشهر الشعراء الساخرين فى صدر الإسلام: "الحطيئة" [2] .

ومن شعره الذى يهجو به أمه، ويسخر من سوء فعلها قوله[3] :

جـــزك الله شـــرا مـــن عجـــوز ولقـــاك العقـــوق مـــن البنينـــا

تنحـــى فاجلـــسى منـــا بعيـــدا أراح الله منـــك العالمينـــا

أغربـــالا إذا اســـتودعت ســـرا وكانونـــا علـــى المتحـــدثينا[4]

ألم أوضـــح لـــك البغـــضاء منـــى ولكـــن لا إخالـــك تعقلينـــا

١- ديوان حسان بن ثابت/١٩١ ، "الوافر التام".

٢- هو أبو مليكة جرول بن أوس العبسى، ولد فى بنى عبس دعيا لا يعرف له نسب، وكان سئ الخلق، دنئ النفس، فاسد الدين، فاحش اللسان حتى أسكته الموت عام ٥٩هـ (ينظر فى الترجمة: الأغاني، ج١٤٩/٢ وما بعدها – والأعلام، ج١١٨/٢)

٣- ديوان الحطيئة برواية ابن السكيت، دراسة د. مفيد محمد قميحة/١٨٦، ١٨٧، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية- بيروت – لبنان ١٩٩٣م، "الوافر التام"

٤- أغربالا: منصوب على إضمار الفعل، أي: أراك غربالا.

حياتـــك مـــا علمـــت حيـــاة ســـوء وموتـــك قـــد يـــسر الـــصالحينا

فالحطيئة فى هذه الأبيات، يسخر من أمه، ومن سوء أفعالها، ويعرض ذلك فى صور هزلية مضحكة رسمها خياله الشاعر، فهو يدعو عليها بأن تلقى عقوقا وجفاءا من أبنائها، كما أنه يدعو عليها بالموت حتى يستريح العالم من شرها، وهذه سخرية قاسية ؛لأن من كان موته راحة للعالمين، كانت حياته شرا مطبقا.

ويعلل الشاعر سخريته منها حين يجعلها بمنزلة الغربال، والغربال من شأنه ألا يمسك ما يجعل فيه ، فكذلك هي، السر عندها مكشوف ومعروف.

وحين يجعلها متجسسة على المتحدثين فى قوله:"وكانونا على المتحدثينا" والكانون بمعنى الثقيل ، وقيل: الذى إذا دخل على قوم كنوا حديثهم منه، أو هو كانون النار، والجميع مؤن، وكذلك هي، ثقيلة ، مؤذية.

فحياتها حياة سوء، وموتها قد يعود بالخير على الناس الذين تتناولهم بشرها.

وأثر الإسلام – كما نشعر – واضح فى الأبيات السابقة، وفى التى قبلها يظهر ذلك من خلال ما يترءى فيها من سهولة ورقة، وإفادة من الألفاظ الإسلامية.

ونلحظ أن أهداف السخرية قد تحددت إلى حد ما فى ظل الدعوة الإسلامية الجديدة، فأصبحت تهاجم أعداءها، وتكشف عن مواطن الضعف والنقص عندهم، كما يلاحظ أن مجالاتها قد اتسعت ، فظهرت السخرية من الذات ومن الأسرة ووضاعتها، ومن بعض الخلال الاجتماعية المذمومة.

وعلى كل حال، فالأمثلة السابقة تؤكد أن السخرية لمعت فى أشعار صدر الإسلام وإن لم تكن قد بلغت من الرقى والتطور ما يجعلها تضارع العصور اللاحقة.

وبذلك يمكننا الرد على "مرجليوث" وعلى الأستاذ محمد خلف الله أحمد، إذ ذهب الأول إلى أن الأدب العربى يخلو من الفكاهة والسخرية، وأيده الثانى بعض التأييد[1].

١- راجع: السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه /٦٨ .

السخرية فى شعر العصر الأموى:

حينما تولى "معاوية بن أبى سفيان" الخلافة "بدأت صفحة جديدة من الصراعات الداخلية، التى راح ضحيتها نفر كبير من المسلمين، ذلك أن الأمويين كانوا يعدون فى نظر المسلمين غاصبين للخلافة ، وسرعان ما أثمر هذا السخط أحزابا سياسية ثلاثة تعارض بنى أمية[1] وتدعو إلى محاربتهم وتنحيتهم عن الحكم.

وقد دارت حروب كثيرة بين هذه الأحزاب الثلاثة، وبين بنى أمية، مما أسفر عن مجتمع يتمزق من داخله" [2] .

وقد كان هذا الصراع السياسى الدامى الذى نشب مع الحكم الأموى " عاملا خطيرا أدى إلى نمو الهجاء السياسي، إذ انبرى كل حزب من هذه الأحزاب يتبنى فكرة معينة، يفخر بها، ويدعو لها، ويرد على خصومها والطاعنين عليها" [3] .

وقد تطور هذا الهجاء – بأثر احتدام الصراعات بين الأحزاب السياسية – إلى "فن له رجاله المعروفون ، ألا وهو "فن النقائض"، وهو فن طائر الشهرة، تحفل به كتب الأدب العربي، فكم كان له من فرسان جالوا فى حلبته، واستطاعوا أن يحدثوا فيه من الطرائف المضحكة التى استمدت كيانها من الأهاجى الطريفة" [4] .

وقد ظهر ذلك بوضوح عند كل من: جرير، والفرزدق، والأخطل.

وقد عد جرير والفرزدق من أبرز الشخصيات العربية فى عالم الهجاء الساخر، وقد فطن جرير إلى مقدرته على الهجاء الضاحك، حيث كان يقول: "إذا هجوت فأضحك" [5].

١- وهم: الزبيريون، والخوارج، والشيعة.

٢- الدراسات الأدبية، د.منصور عبد الرحمن وآخرين/٦، ٨ بتصرف يسير، ط/دار الهلال للطباعة والتجارة ١٩٨٤م-١٩٨٥م.

٣- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى، قحطان التميمى/٢٦ .

٤- الفكاهة فى الشعر المملوكى ، د. حسن أبو المجد/١٠١، بتصرف يسير.
وراجع: الأدب الأموى ملامح وأعلام، د. صلاح زرق ، القسم الأول/٩٦ وما بعدها الطبعة الأولى، مطبعة العمرانية – الجيزة، الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة ١٩٩٥م.

٥- راجع: المصدر السابق/١٠٢ .

ومما كان سببا مباشرا فى كثرة الهجاء فى هذا العصر أيضا "وجود المواقف الفردية لبعض الشعراء فى علاقاتهم بعضهم ببعض، أو علاقاتهم ببعض الولاة والعمال حين يرضون أو يسخطون" [1].

ومن خلال استقراء شعر الهجاء فى العصر الأموي، يمكننا أن نلحظ عليه "الميل إلى الفكاهة والسخرية، وتلك سمة تقترن غالبا بمواقف المرح ومجالس المسامرة والمنادمة ومحاولة إخراج الأمور مخرجا غير جاد" [2].

ومع أن ظاهرة السخرية اتضحت بصورة كبيرة فى العصر الأموى ، إلا أنها كانت أكثر وضوحا فيما وليه من عصور وحقب. ومما يمثل به هنا: قول جرير فى هجاء الفرزدق والتهكم به[3]:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا ... أبشر بطول سلامة يا مربع!

فجرير هنا يسخر من الفرزدق سخرية لاذعة، وهذه السخرية تكمن فى قوله: "أبشر بطول سلامة يا مربع" ، ذلك أنه يعلم أن الفرزدق يرغى ويزيد بالوعيد ولكنه فى حقيقة الأمر لا يستطيع تحقيق ما يتوعد به غيره، لضعفه وقلة عشيرته وقد استغل جرير- هنا- صيغة الأمر فى الفعل (أبشر) استغلالا فيه كثير من السخرية بالفرزدق والتهوين من شأنه.

ويسخر جرير من الفرزدق – أيضا - ، ويعيره بعملة فى الحدادة، ويذكر أن قبر غالب أبى الفرزدق قد رجف من اهتزاز الأرض حوله، لكثرة ما تتعرض له من طرق للحديد، فيقول ساخرا[4] :

رجف المقر وصاح فى شرقيه ... قين عليه دواخن وشرار

١- الأدب الأموى ملامح وأعلام، د. صلاح رزق، القسم الأول/١٥٦ .
٢- المصدر السابق/١٥٩ .
٣- ديوان جرير، تحقيق: د. نعمان طه، ج٢/٩١٦، دار المعارف بمصر ١٩٧١م، "الكامل التام".
٤- شرح ديوان جرير، قدم له وشرحه: تاج الدين شلق/٢٢٠، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربى ١٩٩٣م "الكامل التام".

فهو يصور هذا القين، وقد تطاير الشرر حوله، وغشاه الدخان المتصاعد من النار وهى صورة هزلية مضحكة ماثلة كأننا نراها أمام أعيننا.

ويزيد جرير فى التهكم بالفرزدق، عندما يتخيل أن حدراء خطيبته قد دعت ربها "المصور" الذى صور الفرزدق بهذه الصورة القذرة ألا يجعله قرينا لها، يقول[1] :

حـــدراء أنكـــرت القيـــون وربهـــم ... والحـــر يمنـــع ضـــيمه الإنكـــار

لمـــا رأت صـــدأ الحديـــد بجلـــده ... فـــاللون أورق،والبنـــان قـــصار

دعـــت المـــصور دعـــوة مـــسموعة ... ومـــع الـــدعاء تـــضرع وجـــؤار

عـــاذت بربـــك أن يكـــون قرينهـــا ... قينـــا أحـــم لفـــسوء إعـــصار

فجرير – فى هذه الأبيات – يمنح الفرزدق من صفات القيون، ما يجعل "حدراء" خطيبته تنكره، وترفض أن يكون لها قرينا، خاصة وأن صدأ الحديد قد امتزج بلونه الأسود، وأصابعه القصيرة، فأبداه فى صورة ساخرة مقززة تثير الانقباض.

ثم زاد جرير فى عمق السخرية، عندما تخيل أنها دعت بها المصور الذى صور الفرزدق بهذه الصورة الممقوتة، أن يخلصها منه؛ لأنه بئس القرين. ثم إنه ضاعف الهزء به عندما وصفه بكلمة "أحم" التى فيها من الاستصغار والهزء مالا سبيل لوصفه أو لتصويره ، بل تحسه الأذن فيبتسم الثغر، ثم يكبر جرير صورة فساء الفرزدق فيجعل منه إعصارا، وهذه سخرية قاسية مميتة

- **ومن السخرية أيضا قول الأخطل فى قوم جرير**[2] :

قـــوم إذا اســـتنبح الأضـــياف كلـــبهم ... قـــالوا لأمهـــم: بـــولى علـــى النـــار

فـــضيقت فرجهـــا بخـــلا ببولتهـــا ... فـــلا تبـــول لهـــم إلا بمقـــدار

١- المصدر السابق نفسه، والصفحة والبحر.

٢- ديوان الأخطل، تحقيق: فخر الدين قباوة/٦٣٧، الطبعة الثانية ، دار الآفاق، بيروت ١٩٧٩م، "البسيط التام"

فالبيتان السابقان ينطويان على سخرية لاذعة، وقد عبر الشاعر عنها عن طريق إدخال عنصر الإضحاك فى كلامه: نفيا للملل والنفور، لأن الشاعر كلما أخرج كلامه فى صورة هزلية، كان ذلك أدعى إلى القبول، وأدعى إلى التعلق به.

ولعل منشأ السخرية فى البيتين: هو المبالغة المفرطة فى وصف قوم جرير بالبخل المزرى، كما تطل السخرية من البيت الثانى فى هذه الصورة المضحكة التى رسمها الشاعر لأمهم، وامتهانها بهذه الصورة الوضيعة.

وأخيرا، نجد قول "بلال بن جرير" [1] الذى يسخر فيه من بخل خلاد بن جندل يقول[2]:

نزلنا بخلاد فأشلى كلابه ... علينا، فكدنا عند بيته نؤكل

تناومت نصف الليل ثم أتيتنا ... بقعبين من ضيح وما كدت تفعل

فقلت لأصحابى مسرا إليهم ... أذا اليوم أم يوم القيامة أطول؟

فهذه الأبيات تفيض بالسخرية المرة من خلاد هذا، ذلك أنه يضرب بسهم وافر فى اللؤم والخسة، فهو عند نزول الضيوف به، يغرى بهم كلابه الشرسة حتى تكاد تأكلهم.

وقد كان العرب يعدون حلم الكلب وجبنه عند لقاء الضيوف نوعا من الفخر لكن كلاب خلاد تكاد تأكل الضيف، ومما زاد الأمر دمامة أنه هو الذى يدعوها إلى ذلك.

وتكمن السخرية فى البيت الثانى فى قوله: "تناومت نصف الليل" فقد ادعى النوم، وليس بنائم، حتى ييئس أضيافه من انتظار الطعام فيناموا، ثم بعد أن استيئسوا منه إذا به يأتى إليهم بقدحين من اللبن الغليظ المخفف بالماء، حال كونه مترددا فى تقديمه لهم أو البخل به عليهم.

وهذه سخرية مزرية، تنم عن لؤم فى الأصل، وخسة فى الطبع.

١- هو بلال بن جرير بن عطية بن الخطفى، أبو زافر، من بنى كليب بن يربوع، شاعر الهجائين، قالوا: إنه كان أفضل إخوته من أبناء جرير وأشعرهم (ينظر فى الترجمة: الأعلام، ج٧٢/٢).

٢- الوحشيات، لأبى تمام الطائي/٢٢٥، حققه: عبد العزيز الميمنى الراجكوتي، وزاد فى حواشيه: محمود شاكر، الطبعة الثالثة، دار المعارف ١٩٨٧م، "البحر الطويل".

وتبدو سخرية الشاعر فى بيته الثالث أكثر إيلاما وإيجاعا ؛ لأن الشاعر سلك فيها طريقا غير مباشر ، وهو الشك والتجاهل.

ومن خلال هذه النماذج ندرك أن فن السخرية قد ارتقى فى هذا العصر عن العصر الجاهلى ، وصدر الإسلام.

ولعل ذلك يتجلى فى : نمو السخرية السياسية بين الأحزاب، وميل العام لدى الشعراء إلى السخرية، وإخراج الكلام مخرجا غير جاد، فضلا عن تركيزهم على إدخال عنصر الإضحاك فى كلامهم، وذلك من أسباب تهيئة النفوس لقبوله وحفظه.

السخرية فى شعر العصر العباسى[1] :

عندما ننظر إلى العصر العباسى (الأول، والثاني)، نجد أنه كان قمة العصور الأدبية، فقد ارتقى فيه الأدب وازدهر بصورة لم تتحقق له من قبل فى عصور السابقة.

وبجانب هذا التطور الأدبي، حدثت تطورات كبيرة أخرى فى مجالات الحياة المختلفة، وكان ذلك بفعل مجموعة من العوامل المتشابكة الفاعلة، حيث "كان للحضارات الأجنبية من فارسية وهندية وسريانية ، وغيرها تأثير كبير فى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فى هذا العصر، وكان للأدب – مرآة الحياة فى شتى وجوهها – نصيب كبير من التطور، فسار فيه تيار جديد، شمل الأسلوب والموضوعات، وكان لرقى العقلية العربية وازدياد نموها الثقافى واحتكاكها الاجتماعى أثر أى أثر فى تطور السخرية وشيوعها ، وبخاصة فى ذلك المجتمع الذى انتشر فيه الترف ورغد العيش، وشاعت فيه الفكاهة والظرف، فلا غرابة أن يظهر العديد من الشعراء والكتاب الذين يتسم أدبهم بالسخرية : كبشار بن برد، وأبى نواس، وحماد عجرد، وعبد الصمد بن المعذل، ومنصور الأصفهانى ، والعتبي والحمدوني، وابن الرومي، وابن سكرة، وغيرهم كثيرين"[2].

١- يبدأ العصر العباسى من عام ١٣٢هـوينتهى بسقوط الدولة العباسية،واستيلاء التتار على بغداد سنة ٦٥٦هـ .
٢- السخرية فى الأدب العربي، د.نعمان طه /١١٢، وراجع: اتجاهات الهجاء، للتميمى/٢٩ .

ومعنى ذلك، أن الأدب العباسي، قد أخذ بأسباب التطور والرقي، وتخلى عن السذاجة، ومظاهر البداوة التى كانت تشيع فى أدب بعض العصور السابقة.

ولم تعد السخرية – فى هذا العصر – مجرد وسيلة للإضحاك أو الدعابة وإنما أصبحت ظاهرة ضرورية ملحة لخدمة المجتمع[1].

فـ"الفكاهة فى الأدب العباسى – والسخرية نوع منها – واجهة ظاهرة تخفى خلفها كثيرا مما يستتر ولا تراه العين المجردة فى المجتمع.

والفكاهة ليست مجرد ضحكة عابرة تمر وتنسى، بل إنها – فى الواقع – تعبير مكثف وسريع، يخفى حقائق اجتماعية وسياسية وفكرية حفل بها ذلك المجتمع الزاخر المتفتح على شتى الثقافات، الذى تصارعت فيه مذاهبها واتجاهاتها وانعكست على طبيعة علاقاته ومفاهيمه.

والذى يطالع أدب الفكاهة فى هذا العصر، يجد أنه صور المجتمع العباسى بطبقاته المختلفة أحسن تصوير، كما أنه رسم ما يعتمل بين هذه الطبقات من صراعات ولم يدع أدب [2].

ولقد كان هذا التطور الذى لحق فن السخرية فى هذا العصر، أثرا من آثار التطور الذى لحق فن الهجاء، فـ"الهجاء لشدة ارتباطه بالنفس كان أسرع الأغراض الشعرية استجابة لهذا التطور، فقد كثر شعراؤه، واتسع نطاقه، وتوطدت موضوعاته السياسية والمذهبية والشخصية والاجتماعية، فأصاب تحولا بينا عن التهاجى القديم ، وخاصة هجاء العصبيات القبلية بعد أن خفت حدة هذه العصبيات إلى حد كبير، متغلغلا فى مطاعن خلقية ونفسية" [3] .

١- راجع:شعر الهجاء بين الحطيئة وابن الرومي، للباحث/عادل نصورة/٧٩ .
٢- الفكاهة فى الشعر المملوكي، د. حسن أبو المجد/١٠٥، ١٠٦ .
٣- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى، قحطان التميمى/٢٩ .

ولقد كان لروح المنافسة بين الشعراء العباسيين أثرها الواضح فى فن الهجاء حيث فتشوا عن الخفى من المثالب والعيوب فى الأشخاص،وتناولوها وتفننوا فى تصويرها وتجسيد ملامحها حتى فى الخلفاء والوزراء ، إن دعت الحاجة إلى ذلك أو أحس شاعر بظلم من أحدهم، "وبذلك كان الهجاء الشخصى هو اللون العام فى العصر العباسى " [1].

ويخيل إلى أن السر فى ذلك يرجع إلى: تنامى الروح الفردية، والاستقلال الشخصى عند أبناء ذلك العصر، خلافا لذى قبل حيث غلبت القبلية والحزبية.

وغير خاف أن الذى يدخل معنا فى السخرية من هذا الهجاء ، هو ما ابتعد الشاعر فيه عن ذكر العورات، وعن الإقذاع والإفحاش فى القول، مما يدل على الارتباط الوثيق بين الهجاء وبين فن السخرية، كما أشرنا من قبل.

ولعل أهم ما يلاحظ على السخرية فى هذا العصر : أنها مالت إلى جانب السهولة فى الأسلوب، والبساطة فى التعبير والصياغة، بحيث أصبحت قريبة مما يلهج به الناس فى أحاديثهم.

كما نلحظ أنها مالت إلى نظم المقطوعات القصيرة؛ طلبا للخفة وسرعة إيلام المسخور منه[2].

وقد غلب على شعر السخرية فى هذا العصر اتجاهان:

الأول: الاتجاه التقليدي: ونقصد به السخرية الصريحة المباشرة.

ومن ذلك قول "بشار بن برد" [3] ساخرا من الخليفة المهدى، وضياع الأمر من يده إلى "يعقوب بن داود" [4] سنة ٦٣هـ، وانشغل هو بالشرب واللذات والغناء[5] :

١- العصر العباسى الثاني، د. شوقى ضيف /٤٢٨، الطبعة التاسعة دار المعارف ١٩٩٤م.

٢- راجع: السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/١١٢، واتجاهات الهجاء، قحطان التميمى/٢٩ .

٣- هو بشار بن برد بن يرجوخ العقيلى بالولاء، كنيته أبو معاذ، ولقبه "المرعث" والرعثة: هى القرط فى الأذن، ولد بالبصرة، وتوفى سنة ١٦٧هـ.
(ينظر فى الترجمة: الأغانى ج١٢٧/٣ وما بعدها، والأعلام، ج٥٢/٢).

٤- أصله من الموالي، وقد سلمه المهدى أمور الدولة، وتفرغ هو لنفسه.

٥- انظر: وفيات الأعيان، ج٢٣٧/٢، ومختارات البارودى ، ج٤٠١/٤ ، "البسيط التام".

بنـــى أميـــة هبـــوا طـــال نـــومكم إن الخليفـــة يعقـــوب بـــن داود

ـــاعت خلافـتكم يـا قـوم فالتمـسوا خليفـة اللّه بـين الـزق والعـود[1]

فبشار هنا يهيب بالأمويين أن يستيقظوا من نومهم؛ ليستعيدوا خلافتهم التى سلبها العباسيون منهم ؛ لأن الظروف مواتية، والخلافة العباسية فى ضعف شديد، إذ إن الخليفة الحقيقى هو الوزير "يعقوب بن داود"٠

أما الخليفة: الرسمى الاسمى فهو فى شغل عن الخلافة باللهو والشراب٠

والسخرية تكمن فى أن بشارا لم يكن موالیا للأمويين – كما قد يبدو من ظاهر الكلام – وإنما أراد أن يصل بتهكمه إلى أشد المواضع حساسية فى بنى العباس، وأعنفها إيلاما لهم؛ حتى يتيقظوا ويحافظوا على الحكم٠

كما تكمن السخرية فى قوله: "فالتمسوا خليفة اللّه بين الزق والعود" وهى سخرية قاتلة مميتة، تظهر مدى الإفراط فى اللهو والتخلى عن سياسة الدولة٠

لذا يذكر بعض النقاد أن المهدى لما بلغه ذلك، أمر بضربه بالسوط حتى مات ١٦٧هـ

ومن السخرية من البخلاء والأشحاء قول "أبى نواس" [2] فى العباس بن جعفر بن الأشعث الخزاعى[3] :

ألـــوم عباســـا علـــى بخلـــه كـــأن عباســـا مـــن النـــاس

وإنمـــا العبـــاس فـــى قومـــه كـــالثوم بـــين الـــورد والآس

فالمعنى الذى يحمله الشطر الأول معنى لا بأس به، إذ إن لوم الإنسان على بخله أمر عـادى ، ولكـن يـأتى الـشطر الثـانى مـن البيـت حـاملا بـين أعطافـه سـخرية حـادة مؤلـة

١- الزق: كل وعاء اتخذ للشراب٠ والعود : آلة موسيقية ذات أوتار٠

٢- هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول الحكمى، وهو من الشعراء المولدين، ولد بقرية من قرى الأهواز، ونقل إلى البصرة، ونشأ بها، ثم انتقل إلى بغداد وتوفى بها سنة ١٩٩هـ ٠(ينظر فى الترجمة: الأغانى ج٩/٢ وما بعدها، ج٢٢٥/٢)٠

٣- ديوان أبى نواس/٣٨٦، دار صادر – بيروت (بدون تاريخ)، "البحر السريع"٠

فقوله:"كأن عباسا من الناس"فيه لجوء إلى أسلوب التشكيك والتجاهل فى أمر عباس هذا أهو من جنس الناس حقا أم من جنس آخر ؟!وهو أسلوب شائع الاستعمال،ولكنه مؤلم.

وقد جاء البيت الثانى ليقوى هذا المعنى ويؤكده، حين يجعل الشاعر العباس بين الناس بمنزلة الثوم – برائحته المعروفة – بين الورد ذوات الرائحة الطيبة وهكذا تبلغ السخرية هنا، حدا مزريا ، إذ إنها تقوم بعملية سلخ للعباس ابن جعفر هذا من قائمة الناس، وإضافته إلى قائمة البقول ذوات الرائحة المكروهة المؤذية.

ويقول (أبو نواس) فى الفضل بن العميد الرقاشى[1] :

أمـــات اللّه مـــن جـــوع رقـــاشا فلـولا الجـوع مـا ماتـت رقـاش

ولـــو أشممـــت موتـــاهم رغيفـــا وقـد سـكنوا القبـور إذا لعاشـوا

عادة ما يتخذ الشعراء من العادات الاجتماعية مادة للسخرية ، وقد عرف بنو رقاش بأنهم يظهرون الغنى وهم فقراء، ويظهرون العز وهم أذلاء، ويظهرون التعالى والفخر وهم من أسافل الناس.

وقد أخذ ذلك أبو نواس، واستغله فى السخرية منهم، والتندر بهم ، فبنو رقاش لا يموتون موتا عاديا ككل الناس، وإنما يموتون جوعا ومسغبة.

ثم يسخر منهم سخرية لاذعة فى البيت الثاني، عندما يجعل ميتهم يعود إلى الحياة مرة أخرى إذا أشممته رغيفا من خبز، فكيف به لو أكله.

والصورة التى رسمها الشاعر لبنى رقاش مضحكة، فالذى يعيد ميتهم إلى الحياة أن تشممه رغيفا، أيا كان هذا الرغيف.

ويقول ابن الرومى – أحد أئمة السخرية فى هذا العصر- ساخرا من صاحب لحية طويلة[2]:

١- ديوان أبى نواس/٣٩٦ والرقاشي: نسبة إلى بنى رقاش فى بكر بن وائل، سموا باسم أمهم.

٢- ديوان ابن الرومى ، شرح أ/أحمد حسن بسبج، ج٢/٢٣، ٢٤ ، الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

إن تطـــل لحيـــة عليـــك وتعـــرض ... فالمخـــالى معرفـــة للحمـــير
علـــق الله فـــى عـــذاريك مخـــلاة ... ولكنهـــا بغـــير شعـــير
لـــو غـــدا حكمهـــا إلى لطـــارت ... فـــى مهـــب الريـــاح كـــل مطـــير
ارع فيهـــا الموســـى فإنـــك منهـــا ... شـــهد الله فـــى أثـــام كـــبير
ـــ لحيـــة أهملـــت فـــسالت وفاضـــت ... فإليهـــا تـــشير كـــف المـــشير
فـــاتق الله ذا الجـــلال وغـــير ... منكـــرا فيـــك ممكـــن التغـــيير
او فقـــصر منهـــا فحـــسبك منهـــا ... نـــصف شـــبر علامـــه التـــذكير
لـــو رآهـــا النبـــى لأجـــرى ... فـــى لحـــى النـــاس ســـنة التقـــصير

هذا النص يفيض بروح السخرية والتهكم من بدايته إلى نهايته، فهذه اللحية التى أهملت حتى غطت وجه صاحبها، هى تشبه مخلاة الشعير الفارغة التى تعلق فى رقبة الحمار، وهذه اللحية مهما بلغ طولها وعرضها، فهى لن تزيد صاحبها شيئا من الإجلال والتكريم، لذا فالأحرى بذلك الإنسان أن يرعى فيها الموسى؛ حتى يتخلص من هذا الإثم الذى يرتكبه بسببها.

"وواضح أن روح المناقشة والحجاج – فى الأبيات المتقدمة – تطغى على الروح الشعرية الحقيقية، فقد استغل الشاعر هذا الموضوع ليعبر من خلاله عن معنى فى نفسه معنى التفاوت بين فرد وآخر فى كثير من جوانب الحياة" [1].

وإن كانت السخرية التى تحملها الكلمات والعبارات بين طياتها سخرية مؤلمة موجعة،فهى تبلغ حدا لا يطاول فى الإيلام والإيجاع،وقد اعتمد الشاعر فى ذلك على المبالغة والتزيد، وهذا الأسلوب يناسب السخرية، فالإسراف فى كل شئ يضحك حتى ولو كان فى

١- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى ، قحطان التميمى/٦٨ .

الفضائل ، ثم إن هذا الأسلوب مرتبط بشيء فى نفسية الشاعر، وهو "أنه كان لا يرتاح لمنظر الإسراف فى إطالة اللحى، ولا يقع من نفسه موقع رضى وقبول" [1].

والشاعر وإن كان مجيدا – هنا- من الناحية الفنية، إلا أننا لا نوافقه على إسرافه وغلوه فى وصف اللحى وأصحابها؛ لأن إعفاء اللحية سنة محمدية، وفطرة إنسانية..

ولما كان ابن الرومى يعلم أنه يبالغ ويتزيد ، فقد صدر بيته الأخير بـ"لو" التى تخفف من شدة المبالغة ، وتحد من إفراط التزيد.

ومن السخرية الحادة القائمة على الوصف المضحك، قول ابن الرومى فى وصف رجل أحدب[2] :

قصرت أخادعه وغاب قذاله ... فكأنه متربص أن يصفعا[3]

وكأنما صفعت قفاه مرة ... وأحس ثانية لها فتجمعا

فابن الرومى هنا يصور قصير العنق، طويل الشعر المتدلى على ظهره لا على عنقه منقبضا منكمشا قد التصق رأسه بظهره فى حركة تشنجية، لأنه يتوقع أن يصفع على قفاه، وكأنما قد صفع مرة وآلمه الصفع، فهو يتجمع ليتقى الضربة الثانية، مما جعله مصفوعا طوال الدهر[4].

وابن الرومى لا يبارى فى الوصف الساخر الضاحك، فقد رزق ملكة خاصة فى السخرية والدعابة[5] .

وابن الرومى – كذلك – يعبث بمهجوه عبث أصحاب الصور الكاريكاتيرية حتى

١- المصدر السابق/٦٧ .

٢- البيتان لم أعثر عليهما فى ديوان ابن الرومى على الرغم من شهرتهما ، وانظرهما في: الفكاهة فى الأدب، د.أحمد الحوفي، ج١/٥٩، والشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، د. شوقى ضيف/١٠٤، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٧٧م. والحدب: دخول البطن والصدر وخروج الظهر وارتفاعه، وضده القعس: وهو دخول الظهر وخروج الصدر (لسان العرب، ج١/٣٠٠).

٣- أخادعه: عروق بجانب العنق. والقذال:جماع مؤخر الرأس من الإنسان، وهو ما فوق القفا.

٤- راجع: الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، د. شوقى ضيف/١٠٤ .

٥- راجع: التوجيه الأدبي، د. طه حسين وآخرين/١٧٤، مطابع دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٥٣م.

يصيبه فى مقتل "معتمدا فى ذلك على مهارته الفنية التى تجسد وتشخص ما يريد إلصاقه من صفات ساخرة" [١].

وقد جسد ابن الرومى لون بشرة بعض المغنيات فى سخرية وتهكم لاذع حين يقول[٢] :

رشـــــت بخيلانهـــــا فجلـــــدتها منقوشـــة مثـــل جلـــد النمـــرة[٣]

فـابن الرومى – فى هذا البيت – يقف موقف الرسام الحاذق، الذى يستطيع بقدرته الفنية، وحسه المرهف أن يبرز مناطق القبح فى هذه المغنية التى تسمى (شاغل) فقد صور جلدها بانه مطبوع بألوان سوداء موزعة توزيعا دقيقا فى كافة جسدها، وقد صورت لفظة (رشت) فى البيت هذا التوزيع الدقيق.

وعندما أراد ابن الرومى أن ينقل هذا الشكل إلى مخيلة السامع أو القارئ، وصفه وصفا دقيقا مشبها له بجلدة النمرة.

وأخيرا نجد قول "أبى الشمقمق" [٤] الذى يسخر فيه من بخل "جعفر بن أبى زهير" بالطعام، وقد كان له ضيفا ، يقول[٥]:

رأيـــت الخبـــز عـــز لـــديك حتـــى حسبت الخبـز فـى جـو السحاب

ومـــا رحتنـــا لتـــذب عنـــا ولكـــن خفـــت مزئـــة الذبـــاب

ففى هذين البيتين ، نجد أبا الشمقمق يسخر من شح جعفر بن أبى زهير، فالخبز عنده عزيز ومتخف لا تراه عين ناظر، ولا تقع عليه ، وكأنه فوق السحاب لبعده عن متناول أيدى

١- الوصف الساخر بين ابن الرومى وابن المعتز، إعداد: نادية أحمد مسعد/٥٣، (رسالة دكتوراة ١٩٨٥م)

٢- ديوان ابن الرومى ، ج١٠١/٢ .

٣- الخيلان: جمع خال، وهو الشامة السوداء التى تكون فى البدن (اللسان، ج٢٢٩/١١).

٤- هو مروان بن محمد، شهد نهاية الدولة الأموية، وعاش بقية حياته فى أحضان الدولة العباسية فى القرن الثانى الهجرى ، لازمه الفقر طيلة حياته بالبصرة حتى مات ١٨٠هـ (الأعلام، ج٢٠٩/٧).

٥- ديوان أبى الشمقمق، جمع وتحقيق وشرح : واضح محمد الصمد/٢٩، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٩٩٥م، "الوافر التام".

الضيوف، وهو حين يريح ضيوفه عند تناولهم الطعام لا يقصد من ذلك العمل على إراحتهم ، وإنما يجاهد الذباب حتى لا يختطف شيئا من الطعام ، فيكون ذلك نقصانا منه.

وهى سخرية لاذعة من بخل جعفر هذا، وقد صورها الشاعر فى صورة هزلية مضحكة، وان كانت ذات دلالة عميقة على هذا المرض النفسي.

الثاني: الاتجاه التجديدى:

وهو ما يتمثل فى السخرية غير المباشرة أو غير الصريحة، وفيها يتناول الشاعر صفة من صفات المهجو- المسخور منه- بغرض تعليلها ومدحها فى الظاهر وبغرض السخرية منها، والعبث بصاحبها فى باطن الأمر، وهذا الأسلوب أدخل فى السخرية وأوجع.

ومن ذلك قول الشاعر"حماد عجرد"[1]ساخرا من "حريث بن أبى الصلت" [2] :

حريث أبو الصلت ذو خبرة ... بما يصلح المعدة الفاسدة

تخوف تخمة أضيافه ... فعودهم أكلة واحدة

نجد الشاعر-كما هو ظاهر-لا يسخر من بخل"حريث"هذا بطريق مباشرة،وإنما يسلك طريقا أخرى، فيأتى بكلام ظاهره حلو، وباطنه مر قاتل،والشاعر يلتمس لبخل المسخور منه علة طريفة، وهى أنه يخاف على ضيوفه من التخمة، ولذا فهو يبخل عليهم بطعامه، وهى سخرية لاذعة كما لا يخفي.

وهكذا نجد العصرالعباسى يتربع على قمة الأدب الساخر،حيث وجد فيه كثير من الساخرين والمهرجين،وأهل المجون،كأثر من آثار تنوع الثقافات،وامتزاج الأجناس،واتساع رقعة الدولة العباسية،كما تنوعت فيه السخرية، وازدادت عمقا وقوة فى اللغة وفى طرائق الأسلوب التى استعملها الشعراء.

١- (هو حماد بن يحيى بن عمرو بن كليب، نشأ بالكوفة، وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية، نظم الشعر فى أغراضه المختلفة ولاسيما الهجاء، قتل ١٦١هـ بالأهواز. (ينظر فى الترجمة: العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج٢٥٨/١، الطبعة الأولى، دار الإمام على للطباعة والنشر سنة ١٩٩٢م).

٢- البيتان من كتاب: الشعر فى بغداد، د.أحمد عبد الستار الجوارى/٢٤١، طبعة وزارة المعارف العراقية.

السخرية فى الشعر الأندلسي:

يطلق "العصر الأندلسي: على الفترة التى حكم فيها المسلمون بلاد الأندلس وذلك من عام ٩٢هـ إلى عام ٨٩٧هـ .

وكلمة الأندلس فى التاريخ الإسلامى يراد بها: المنطقة التى تضم البرتغال وجنوب أسبانيا، والتى كانت تعرف قديما بشبه جزيرة أيبريا.

وهى تقع فى الجنوب الغربى لقارة أوربا فى مواجهة المغرب الأقصى.

والمتتبع للأحداث التاريخية فى الأندلس ، يشعر أن الأندلسيين لم يقدر لهم الاستمتاع بحياة سياسية مستقرة ؛ فعهد الولاة كان عهدا مضطربا، قامت فيه من ناحية ثورات البربرة ضد العرب، واستحكم الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق، وانتقلت معهم العصبية القبلية، وبدأ نزعها ظاهرا بين القيسية واليمنية.

وأخذت عوامل الضعف والانقسام تدب فى كيان المجتمع الأندلسي، ففى أواخر حكم الأمويين ابتليت الأندلس بخلفاء ضعاف، وسرعان ما أضحت البلاد نهبا لفتنة عاتية قضت على الخلافة الأموية، ومزقت وحدة الأندلس، وانقسمت إلى دويلات يستأثر بكل دولة منها حاكم، أو أمير، وأنفق أمراء الطوائف أموالا طائلة فى تشييد الحصون لحماية ملكهم، وانساقوا وراء مصالحهم الذاتية، حتى انتهى الأمر بهم إلى أن يدفعوا – صاغرين – الجزية للروم.

ودارت رحى الحرب فيما بينهم، واستعانوا بالروم فى حل خلافاتهم، بل إن بعضهم تحالف مع الروم ضد جيرانه من المسلمين.

وبعد أن دالت دولة الطوائف ، خضعت الأندلس لحكم الأفارقة، وأصبحت تابعة لا متبوعة.

وفى أواخر عصر الموحدين، أخذت المدن الأندلسية تتهاوى فى يد الإسبان مدينة إثر مدينة ، ولم يبق سوى غرناطة وبعض الحصون التى ظلت تقاوم ردحا من الزمن إلى أن سقطت فى آخر الأمر، مؤذنة بأفول شمس الإسلام عن الأندلس[1].

وعندما نتحدث عن الناحية الأدبية فى الأندلس، نجد ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح التناقض، فأنت تقرأ لهم شعرا فى الزهد والحكمة يخيل إليك أنهم كانوا زهادا متنسكين بدرجة عالية، وتقرأ فى ناحية أخرى شعرا فى المجون والخلاعة والتهتك تجعلك غاضبا من ضياع هذا الجهد الإنسانى أدراج الرياح والإنسان فى كلا الحالين على حق وصواب ؛ لأن الأندلسيين اتصفوا "بالحدة والتطرف فى نظرتهم للأشياء ، فقد وجدت بيئات الفقهاء والزهاد الذين كانوا يأخذون بالأشد فى كل حكم من الأحكام المتصلة بأمور الدين، كما وجدت معها بيئات أخرى مالت إلى التساهل والتحرر، فصار فيها المحظور مباحا، وأصبح غير المألوف مألوفا، وأسرف كثير من الناس فى سلوكهم الاجتماعي، وعاش بعضهم حياة لاهية صاخبة" [2] .

ومع ذلك كله، فقد ظلت الصبغة العربية المشرقية هى الغالبة على شعراء الأندلس، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن شعراء الأندلس ظلوا طوال عصورهم العربية " يحاولون محاكاة المثل العليا الشعرية المشرقية، صادرين فى ذلك من جهة عن طبيعة بيئتهم التى تعودت أن تتلقى وتستقبل من الأمم التى تنزلها، ومن جهة ثانية عن طبيعة العرب الذين يتمسكون تمسكا شديدا بتقاليدهم الأدبية وخصائصها المتميزة" [3] .

١- راجع فى ذلك :
- الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير، ج٤/٥٥٦: ٥٦٧، دار صادر – بيروت ١٩٧٩م.
- الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية،السيد أحمد بن زينى دحلان (مفتى مكة) ج١/١٩١: ١٩٣ ، الناشر مؤسسة الحلبى وشركاه للطبع والتوزيع بالقاهرة، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦٨م.
- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات/٣١٢ : ٣١٤ .
- الهجاء فى الأدب الأندلسي، د. فوزى سعد عيسى/١٨، ١٩ .
٢- الهجاء فى الأدب الأندلسى /١٩، ٢٠ .
٣- فصول فى الشعر ونقده، د. شوقى ضيف/١٤٤، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٧١م.

ولا يعنى هذا القول أن شعراء الأندلس لم تظهر شخصيتهم فى أشعارهم فقد وجد بين الحين والآخر شعراء مجيدون، استطاعوا أن يعبروا عن شخصية مجتمعهم من بعض الوجوه .

وفيما يخص جانب السخرية فى شعر الأندلس، نجد أن بيئة الأندلس كانت بيئة متحضرة ، ومعلوم أن التحضر يرقى بالعقول والأذهان، فكلما ارتقى فكر الإنسان، كان أقدر على لمح الدقائق والعيوب ، وكشف أوجه الخلل والقصور.

والبيئة المتحضرة – بعد ذلك – تعين شعراءها على أن يتناولوا ما وقعت عليه أعينهم من نقائص وعيوب بصورة تتميز بالسخرية والتهكم، وتناسب الذوق المتحضر.

ولعل مما أعان على شيوع الهجاء الساخر فى بلاد الأندلس: ما شاع فى البيئة الأندلسية المتحضرة من لهو وفراغ وميل إلى الدعابة والتظرف، كما أعان على ذلك – أيضا – طبيعة الأندلسيين أنفسهم الذين جبلوا على خفة الظل، وكلفوا بالمزح والدعابة[1] .

وقد تنوعت السخرية عند الأندلسيين، فكان منها الشخصى ، ومنها السياسي ومنها الاجتماعي.

وإن كان اللون السياسى هو الذى يغلب على كل هذه الألوان.

ومن أمثلة السخرية عند الأندلسيين، قول "ابن صارة الشنتريني"[2]يسخر من أحد الكتاب فى عصره[3]:

وأغـــر ينتحـــل الكـــتابة خطـــة	متوقـــد كالحـــية النـــضناض
ـشق الـــسواد فأصـــبحت أســـنانه	تـــشرى الـــسواد ببيـــع كـــل بيـــاض
فـــإذا شـــحا فـــاه رأيـــت خنافـــسا	يـــأوين مـــن فيـــه إلى المرحـــاض

١- انظر: الهجاء فى الأدب الأندلسي، د. فوزى عيسى ١٨٧ .

٢- هو الأديب أبو محمد عبد الله بن صارة البكرى الأندلسى الشنترينى الأصل، من شعراء المائة الخامسة، نزل إشبيلية، وسكنها وتعيش فيها بالوراثة، تجول فى بلاد الأندلس للتعليم بالعربية حتى نبغ فيها، وامتدح الولاة والرؤساء ، وكان حسن الخط، جيد النقل، وتوفى سنة ٥١٧هـ .
(ينظر فى الترجمة: الذخيرة،لابن بسام، ت: د. إحسان عباس٨٣٤/٢/٢، طبعة دار الثقافة بيروت ١٩٧٩م - وفيات الأعيان، ج٩٣/٣ . - المجلة العربية، العدد٩٥/٣٠٩، شوال ١٤٢٣هـ - ديسمبر يناير٢٠٠٢م

٣- الذخيرة ، لابن بسام، ٨٤٥/٢/٢ ، "الكامل التام".

فالناظر فى مطلع هذه الأبيات، يتخيل – لأول وهلة – أن الشاعر يمدح هذا الكاتب، ويصفه بصفات حميدة؛ ذلك لأنه بدأ كلامه بوصفه ببياض الوجه، واتخاذ الكتابة دينا له، ثم يأتى الشطر الثانى من البيت الأول حاملا وصفه بالتوقد والسرعة والنشاط، وكأنه حية لا تستقر فى مكان، وتخرج لسانها بصفة مستمرة. وهنا تبدأ السخرية من هذا الكاتب، ثم يواصل الشاعر سخريته فيصفه بشدة سواد الأسنان، حتى إن أسنانه لتشترى السواد وتبيع ما فيها من بياض، مما جعل منظر فمه منظرا قبيحا بشعا، فهو إذا فتح فمه ، رأيت أسنانه فى سوادها – تشبه الخنافس التى تريد الإيواء إلى المرحاض.

وهذه سخرية مرة ولاذعة للغاية، قدمها الشاعر فى أسلوب هزلى مضحك ولكنه مميت وقاتل.

ومن السخرية الاجتماعية التى برع فيها شعراء الأندلس، قول أمية بن أبى الصلت الأشبيلى[1] فى شخص ثقيل الظل[2]:

لى جليس عجبت كيف استطاعت ... هذه الأرض والجبال تقله

أنا أرعاه مكرها وبقلبى ... منه ما يقلق الجبال أقله

فهو مثل المشيب أكره مرآه ... ولكن أصونه وأجله

فالشاعر – هنا – يصف هذا الجليس بالثقل الفادح، ويتعجب من الأرض والجبال، لأنها استطاعت أن تحمله – على ثقله – وتنقله من مكان إلى مكان.

ويذكر الشاعر أنه يستمع إلى حديث هذا الثقيل مكرها غير راض ، ولكن القلق والهم الذى بداخله جدير بأن يزلزل الجبال، ويعصف بها شئ قليل منه، فمثل ذلك الإنسان الثقيل كمثل الشيب يكره الإنسان مرآه ولكنه يصونه ويجله.

١- هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الإشبيلي، كان بارعا فى الطب والفلسفة والتلحين، وله كتاب "الحديقة"سار فيه على أسلوب"اليتيمة"للثعالبى عاش ستين عاما،وتوفى عام ٥٢٠هـ وقيل ٥٢٨هـ بالمهدية ودفن بها ينظر فى الترجمة: ـ نفح الطيب ، للمقرى، ت: د. إحسان عباس ج١٠٥/٢، ١٠٦ دار صادر بيروت ١٩٨٨م.

٢- نفح الطيب، المقرى، ج١٠٨/٢ ، "الخفيف التام".

والسخرية من هذا الثقيل لا تخفى فى هذه الأبيات ، وقد سلك الشاعر إليها مسلك المبالغة والتزيد فى القول.

ولعل الذى دفعه إلى ذلك هو الرغبة فى الإيلام، حتى يقوم ذلك الإنسان من فساد سلوكه ، واعوجاج مذهبه.

ومن السخرية الشخصية فى هذا المقام قول الشاعر الأندلسى عبد الله بن كليب[1] ساخرا من أنف الزهرى[2] :

أنفك يا زهرى فى قبحه ... كأنه فى صورة البوق[3]

يقعد فى البيت لحاجاته ... وأنفه يمضى إلى السوق

برع شعراء الأندلس فى التقاط العيوب الجسمانية وتكبيرها بصورة تبرز مدى عنفهم فى النقد والتوجيه.

والشاعر هنا يصف أنف الزهرى هذا فى قبحه بأنه كالبوق، وهو ما ينفخ فيه ويذمر فيعلم المراد منه .

ويبالغ الشاعر فى وصف هذا الأنف بكبر الحجم، حتى إنه يجعله يذهب إلى السوق للشراء بينما الزهرى صاحبه يقعد فى بيته لقضاء بعض حوائجه.

وهذه سخرية مرة ولاذعة، وهى تعتمد على المبالغة والمغالاة التى عرف بها الأندلسيون؛ نظرا لاتصافهم بالحدة والشدة والتطرف فى نظرتهم إلى الأشياء كما قلنا من قبل[4].

١- هو عبد الله بن كليب بن عبد السلام شاعر الأندلس ، عاش فى عهد الناصر، وتوفى عام ٣٠٦هـ .
ينظر فى الترجمة:
- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب،لابن عذارى، تحقيق:ج. س . كولان . ليفى يرو فنال، ج١٧٤/٢، الطبعة الثانية ، دار الثقافة – بيروت – لبنان ١٩٨٠م .
- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، لمحمد بن عبد الله الكتانى تحقيق د. إحسان عباس ص٢٩٨، دار الشروق ١٩٨١م.

٢- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس /٥٦٧ ، "البحر السريع".

٣- البوق: ما ينفخ فيه ويذمر (اللسان ، ج٣١/١٠).

٤- راجع: الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة/٥٥،ط٣،دار العلم للملايين- بيروت- لبنان١٩٧٢م.

هذا وينبغى أن نشير إلى أن السخرية عند الأندلسيين، قد بلغت من الرقى والتطور مبلغا كبيرا، فقد كان الأندلسيون – كما ذكرنا من قبل – من أقدر الناس على التقاط العيوب والنقائص، وتصويرها فى صور هزلية لاذعة.

وقد اتصفت السخرية عند الأندلسيين بطابع المبالغة والمغالاة ؛ نظرا لطبيعتهم النفسية التى تتصف بالشدة والحدة، والتطرف فى كل شئ.

وبعد ، فهذه إشارات عاجلة ، طوفت حول الشعر العربى القديم (جاهلى وإسلامي، وعباسي، وأندلسي) لإبراز الجذور العميقة لفن السخرية، وقد وقفنا على شواهد متعددة لها عبر العصور الأدبية المختلفة، مما ينبئ – فى غير شك – عن أصالة فن السخرية ، واتصال حاضره بماضيه فى صورة متلاحقة ومتكاملة.